إبراهيم الكوني ومشروعه السردي
– من طوق الصحراء إلى إشعاع العالمية–

د. طانية حطاب

جامعة مستغانم

الملخص

يشكّل إبراهيم الكوني الروائي الليبي الشهير طفرة نوعية في مجال الكتابة السردية العربية لتميّزه عن جمهور الروائيين العرب المحدثين والمعاصرين. ولعلّ هذا التميّز يرجع في الأصل إلى أسلوبه الفريد من نوعه، وإلى تيماته السردية التي خصّته دون غيره من الكتّاب. تيمة الصحراء وأهلها " مجتمع الطوارق وأساطيره"، فقد استطاع الكوني بفضل مواضيعه وطريقته في الكتابة أن يخصّص لنفسه مكانة راقية ومميّزة في الوطن العربي، الأمر الذي جعل الكثير من المترجمين يترجمون أعماله الروائية إلى جميع لغات العالم ممّا مكّنه من أن يتحرر من طوق الصحراء ليلامس العالمية ويعيش بريقها.

سأحاول في هذه الورقة البحثية أن أسلط الضوء على بعض الأعمال الروائية لإبراهيم الكوني التي تمكّن من خلالها الانطلاق من المحلية للوصول إلى العالمية مركّزة على أسباب نجاحه وأسراره.

الكلمات المفتاحية: إبراهيم الكوني– المشروع السردي– الصحراء– العالمية– المحلية.

résumé

Le grand romancier lybien Ibrahim Elkouni est connu parmi les romanciers arabes par son talent distinct dans le domaine de l’écriture narrative. Cette distinction est due essentiellement à son style unique, et au choix de ses thèmes narratifs notamment « le sahara » et ses habitants « la société touareg ». C’est à cause de

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/584

ces thèmes et de sa manière d'écrire qu' 'elkouni' a pu occuper une place assez importante dans le monde arabe, et c'est cette célébrité qui a poussé un grand nombre de traducteurs à traduire ses œuvres romanesques à toutes les langues ce qui lui a permis de franchir le « sahara » et se faire connaitre mondialement.

Dans cet article, j'essaie d'éclairer quelques romans de « Ibrahim Elkouni » qui l'ont fait sortir du local au mondial en mettant l'accent sur les secrets de son succés.

Les mots clés : Ibrahim El Kouni-Le projet narrative- « le sahara »-universalité.

1_ الرواية العربية بين التأصيل والتجريب:

تعدّ الرواية إحدى أهم الأشكال السردية الكبرى التي تشكّل المدونة العربية الحديثة والمعاصرة. والمتتبع لمسار تطوّرها منذ النشأة إلى اليوم يرى تضاربا بين آراء فريقين من النقاد، بين فريق يرجع أصولها إلى التراث الحكائي العربي، وبين فريق آخر يردّها إلى الغرب ويعتبر العرب مجرد مستوردين لها.

يرى جمال الغيطاني وهو من أنصار الفريق الأول «أنّ الرواية العربية اشتقت من مصادر غير مباشرة هي: كتب الرحلات والتراجم والخطط وغيرها، ومصادر مباشرة هي: السيرة الشعبية التي يصطلح عليها بـ "الملاحم". ولذلك فالرواية تطور طبيعي للمرويات السيرية الشائعة في الأدب العربي، وهي تدرّج متواصل أخذ شكله الحالي بعد أن مرّ بمراحل كثيرة. ويذهب إلى أنّ الدّارسين لم يكشفوا الصلة الداخلية بين الرواية وتلك المرويات" لأنّ هناك انقطاعا حدث بين التراث العربي القديم وبين الثقافة العربية الحديثة. فجوة حدثت بمجيء الحملة الفرنسية إلى مصر وتوجّه المثقفين العرب إلى الغرب في القرن التاسع عشر، وتصاعد ذلك في القرن العشرين. كلّ ذلك أدّى إلى إحساس عميق بالدونية تجاه الثقافة العربية لدرجة الاعتقاد أن الكثير من المثقفين في العالم العربي لا يتعاملون مع "ألف ليلة وليلة" بنفس المستوى

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/584

الذي يتعاملون به مع "موبي ديك" (Moby Dick) أو "يوليسيس" (Ulysses) لجيمس جويس(James Joyce) أو سواه من كبار الكتاب العالميين.»[1]

أمّا الروائي " خيري الذهبي " فيقرّ بكثير من الموضوعية والاعتدال بأنّ لبنة الرواية العربية الحديثة قد تشكّلت من خلال الاستناد على المرويات السردية القديمة كالمقامة والسيرة والملحمة وألف ليلة وليلة[2]، هذه الأخيرة التي كانت الحجر الأساس في تكوين السرد العربي بشطريه: القصة والرواية، كما يعترف أيضا بأنه لا يمكننا أن نحكم على رواية تلك المرحلة بمقاييس الجنس الأدبي المعاصر، إذ جذور الرواية تمتد إلى التراث العربي القديم، وتوغل فيه، ولكنها تطوّرت مع الزمن واكتملت بفضل ما أفادنا به الغرب المعاصر من علوم صقلت الرواية العربية وأقامت كيانها.

ولعل هذا الموقف بالذات يحدّ من الصراع القائم بين الفريقين، إذ إنه يصعب على الباحث في مجال السرد العربي أن يلتزم برأي أحد الفريقين، خاصة وأنّ بعض الغربيين أنفسهم يقرّون بأنّ "أصل الرواية يرجع إلى العرب الذين اعتبرهم بوجه خاص جنسا موهوبا في الكذب. ورغم الصيغة الهجائية الراشحة من هذا الرأي، ورفضنا لما فيه من ذم، فالأهم يتعلق بالدور الذي لعبته "ألف ليلة وليلة" في تاريخ القص وتاريخ التلقي في آن واحد، وخاصة أنّ العجز عن إنتاج الحكاية كان معناه موت شهرزاد، والمماثلة بين الحكاية وشهرزاد ملأى بدلالات كثيرة، في طليعتها أن الحكاية الموهومة، ورغم وعينا بأنها موهومة، صارت بعد ألف ليلة وليلة تعني حياة أخرى لا تقل أهمية عن الحياة الواقعية."[3]

وإذا كان تأثير " ألف ليلة وليلة " قد تجاوز البحار منذ مئات السنين، فلا شكّ أنّ تأثيره كان أكبر وأقوى على الروائيين العرب الذين لطالما حاولوا محاكاته، والنسج على منواله اعتقادا راسخا منهم أنه نبع صاف من الممكن الاستقاء منه كيفما ومتى ما شاءوا. فهو نص ثرّ وغني بما يحويه من حكايات وأشعار وأساطير خيطت بشكل أنيق يدهش القارئ عاديا كان أم مثقفا، ويدخله سراديب الخيال البشري الخلاّق الذي يكشف عن مجتمع عربي إسلامي كان يعيش ثراء فكريا وماديا أنتجته حضارة قوية، ومدنية أصيلة، وثقافة عالمية منفتحة على الآخر.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/584

ولئن كان أصحاب هذا الاتجاه المحافظ يرجعون أصول الرواية العربية إلى الموروث السردي العربي القديم، فإنّ متبني الاتجاه الثاني يرون عكس ذلك تماما، إذ ينفون أية صلة تربط الرواية بأشكال السرد القديمة، ويجزمون أنها – أي الرواية- شكل سردي وافد، جاء نتيجة التأثر بالغرب والانبهار به وبمقولاته النقدية والأدبية.

لقد ظنّ أصحاب الاتجاه الثاني أن الرواية العربية لا تنمّ بصلة إلى الموروث الحكائي العربي القديم، وإنما جاءت نتيجة التأثر بالغرب ومحاكاته في فنونه الأدبية المختلفة دون أن يغفلوا دور الترجمة في زيادة درجة هذا التأثر وتسهيله. وهذا حليم بركات يصرّح قائلا: «رغم تراث ألف ليلة وليلة، وحكايات كليلة ودمنة، ورسالة الغفران، وحي بن يقظان، وأقاصيص الأغاني، ومقامات الحريري والهمذاني.. اعتبرت الرواية والقصة منذ البدء فنا جديدا، فترجمت النماذج الغربية، وقلّدت تقليدا فجّا، ومما ساعد على نشوء الرواية والقصة ديناميكية النهضة بحدّ ذاتها. فقد دعت الحاجة بعد انهيار النظام العثماني وقيام مرحلة عابرة إلى البحث في طبيعة النهضة وأسسها الاجتماعية والسياسية، ووجد المفكرون الأوائل أنّ الأسلوب الأنسب لنشر أفكارهم هو الرواية والقصة، ثم نشوء الصحافة والمجلات دعا بدوره للاهتمام بهذا الفن الجديد.»[4]

وإذا كان هذا الروائي قد قطع الصلات القائمة بين الموروث القديم وهذا الشكل الأدبي الجديد المتمثل في الرواية، فإنه يصرّح ضمنا أنها ذات أصول أجنبية لا عربية، أتيح للعرب التعرف عليها عن طريق الترجمة والمحاكاة والتقليد. إذ لا يعقل أن تنشأ من العدم. كما يشير إلى أن المجتمع العربي وظروفه آنذاك ساعدت على ظهور هذا الجنس الأدبي وازدهاره بشكل ملفت للانتباه. فبعد أن كان الشعر ديوان العرب قديما، أصبحت الرواية ديوان حياتهم حديثا، لا يضاهيها في ذلك أي جنس أدبي آخر. فهي الأوسع انتشارا، والأكثر تلقيا ومقروئية.

وأمام هذا الخلاف القائم بين أصحاب الاتجاه " المحافظ " وأصحاب نظرية "المؤثر الغربي" حول أصل الرواية العربية ونشأتها، فإنه «يصعب إهمال رأي "روجر ألن"(Roger Alan)، وهو أكثر اعتدالا وموضوعية. وذهب فيه إلى أن تطور الرواية العربية هو نتاج عملية

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/584

طويلة الأمد، جاء كثمرة للمواجهة والالتقاء بين كل من الغرب بعلومه وثقافته من جهة، وإعادة كشف التراث الكلاسيكي العظيم للغة العربية وآدابها وإحيائه من جهة ثانية. وهذا التفسير أقلّ مغالاة من الرأي الذي قال به أصحاب نظرية المؤثر الغربي.»(5)

والواقع أنّ مثل هذه الرؤية الموضوعية لأصل الرواية العربية ونشأتها يساعد الباحث في أبحاثه ودراساته للوصول إلى نتائج تفيد الرواية في تطوّرها وتقدّمها المستمرين، فلا يبقى الإشكال مطروحا فقط حول جذور الرواية ومحاولة التأصيل لها، وإنما يُعنى البحث العلمي بأمور أخرى تسهم في تطوير تقنيات النص الروائي العربي، ودفعه للأمام للوصول إلى العالمية. «فالرواية لم تكن إلاّ تحوّلا بطيئا وغير مرئي في بعض الأحيان، لنسق ثقافي بدأ يتعرّض للتحلل، وهذا النسق كان يحتضن ذخيرة من المرويات السردية التي تفكّكت كثير من عناصرها بالتزامن مع النسق الحاضن لها، فأصبحت رصيدا وظّف في النوع الروائي الوليد. والأمر – حسب تصورنا- متصل بضرب من التحوّل الثقافي في النظر إلى وظيفة الأدب، وأسلوبه، وماهيته الفنية. فلم يعد من الممكن توقير نصوص سردية (ولا شعرية) هدفها الأساس الامتثال لمعايير الصنعة التقليدية التي كانت مهيمنة في النثر الذي من خلاله تتحقق وظيفة النصوص السردية. ولقد تبيّن لنا- يقول الباحث عبد الله إبراهيم- كيف تفاعلت معا المكونات الموروثة والعناصر الجديدة والمؤثرات الثقافية الخاصة أو تلك التي ظهرت بفضل المؤثر الغربي. وعلى الرغم من كل هذا فقد بولغ كثيرا في تضخيم ذلك المؤثر، وأسند إليه أمر ظهور الرواية.»(6)

فالمتعارف عليه والمتفق أنّ مجال الإبداع والتعبير لم يعد مفتوحا أمام المقامة التي يمتثل أصحابها لمقاييس الصنعة اللفظية، لأنّ ذوق الإنسان العربي قد تغيّر، وظروف المجتمع تبدّلت، ولم يعد من الممكن أن تعبّر المقامة أو غيرها من الموروثات السردية القديمة عن هذه التحوّلات، فكان لا بدّ من ظهور شكل سردي جديد يولد من تضافر القديم الموروث والجديد الوافد. فلا الرواية كما هي عليه اليوم كانت موجودة في التراث السردي العربي، ولا الفضل في ظهورها يعزى كله للمؤثرات الغربية، إنما هي حصيلة تفاعلات الثقافة العربية الأصيلة بالمكوّنات الغربية الجديدة،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/584

لأن بذور الرواية كانت موجودة بين قصص الجاحظ، وكليلة ودمنة، وقصص ألف ليلة وليلة، ومقامات الحريري والهمذاني.. ولكن شرط نموها كان مرتبطا دائما بما أتت به الرواية الغربية، فهي النموذج الأكثر اكتمالا ونضوجا مقارنة بنظيرتها العربية التي كانت في مراحل طفولتها الأولى.

لقد أنيط للرواية العربية هدف نبيل وهو التعبير عن الإنسان العربي وكتابة تاريخ المضطهدين الذين همّشوا في مجتمعاتهم. كتابة تاريخ من لا تاريخ لهم، تاريخ إنسانية مقموعة منسية لسبب أو لآخر. ولما كان الأمر كذلك، فقد حفل العرب بالرواية خاصة في العقود القليلة الماضية، لأنهم أدركوا أهميتها لهم ومدى تأثيرها في الجماهير. ولهذا سعوا إلى تبنّيها ومنحها الشرعية لإدراجها ضمن خريطة الأجناس الأدبية الأكثر مقروئية وتلقيا.

وكما حاول بعض الروائيين التأصيل للرواية باعتبارها جنسا أدبيا جديدا على ساحة الأدب العربي، فقد حاول البعض الآخر التجديد فيها للمضي بها قدما، والخروج بها من دائرة الذين سعوا دائما إلى إعطاء هذا الجنس الشرعية والأصالة. هذا التجديد الذي عرف فيما بعد بمصطلح "التجريب" أو "الحساسية الجديدة" كما يسميه بعض المشارقة.

«فإذا كان قانون التأصيل الروائي يهدف – عبر التحقق النصي- إلى إثبات شرعية الجنس الروائي من داخل أسئلته الخصوصية، أي عن طريق أزماته وعوائقه التي تمده بمقومات تبنيُنه الأجناسي الخاص، فإن قانون التجريب الروائي هو الآخر لا يتعارض مع هذا الهدف: أي إثبات شرعية الجنس الروائي، لكن – وهنا الفرق- ليس من داخل أسئلته الخصوصية وحسب، بل عبر الانفتاح والاتصال بكل الأجناس التعبيرية والنصوص والمرجعيات الممكنة. إنّ التجريب أوسع طموحا، إذ ينفتح على الأجناس المجاورة نابذا بذلك وهم "الاستقلال النوعي"، ولكنه في انفتاحه ذاك يؤسس القوانين الخاصة والجديدة للرواية عبر الانتقال بها من سؤال الجنس إلى سؤال النص. من سؤال الهوية إلى سؤال الاختلاف، ومن مأزق الكينونة إلى أفق الصيرورة.»(7)

فالتجريب والحال كذلك، لا ينافي التأصيل بل يكمّله، إذ التجريب تجاوز للمألوف، وخرق للسائد، وانزياح عن الشائع، إنه محاولة بحث دائم عن الجديد في الشكل والمضمون معا،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/584

وسعي حثيث للإبداع والابتكار، ومن شأن هذا كله أن يطوّر الرواية العربية، ويفيدها أيّما إفادة في محاولتها مواكبة تطورات الرواية الغربية أو العالمية.

وغير خاف، أنّ «الأدب التجريبي هو أدب باحث، ومختبر، وهو أدب حركي يبحث في الشكل، ويختبر المضمون، ويمتحن اللغة، ويغوص في الواقع، ويقتبس من كافة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية والاجتماعية أدواته وأشكاله ومضامينَه وغايته، لا يقتصر على الشكل، بل يتجاوزه، ولا يكتفي بالمضمون، بل يتعداه، فهو مشروع وواقع يبحث دائما عن الاختبارات الأساسية في جماليات التجربة، ويرسي قواعد ذاتية تنبع أساسا من فكر الكاتب ورؤيته وأقصى ما تستطيع أن تعطيه أدواته وذخيرته الثقافية والتفاعل الذي يتمّ في مخزونها الخاص.»(8)

فالتجريب أمرٌ مشروع شرط أن يكون نابعا من قناعة الكاتب/المبدع، صادرا عن رؤيته الخاصة. فقد يؤدي به إلى عمل مكتمل ناضج، وقد لا يؤدي إلى ذلك، ولكن الأهم أن يحاول الروائي الابتكار والبحث عن طرق جديدة للتعبير بعد أن أصبحت الطرق الموجودة الآن معروفة ومتداولة، ومستهلكة حتى النخاع، فالشكل نفسه، والمضمون عينه، وبالتالي يجد الكاتب نفسه ملزما بالتجديد كي يتميّز عن الآخرين من جهة، وينال رضى القارئ الذي أصبح صعبا ومتطلبا من جهة أخرى.

ولأن الرواية جنس يقبل التجديد، فقد «نبّه الروائيون الجدد على الميزة الأساسية التي يفوق بها النوع الروائي غيره من أنواع أدبية، ألا وهي إمكانيته العالية في توفير أفق اختيار حر، ومرونة فائقة البدائل والتغيرات، وتشكل هذه الميزة عنصر الثبات الوحيد في الرواية، الذي أنقذها من غوائل الزوال، وبدل أن يغدو الحديث عن اندثار الرواية بفعل الأزمات التي اصطدمت بها الكتابة الروائية، صار من الممكن الحديث عن ضرورة تجاوز الشكل الروائي الواقعي المنهك، عن طريق مساءلته الواعية، فالتبدلات الاجتماعية الجمة، والضرورات الفكرية المستجدة، تستلزم شكلا جديدا للتعبير عنها، لأن الشكل القديم لم يعد يفي بالغرض. من هنا تفاقم إحساس كتاب الرواية في القرن العشرين بضرورة التغيير، فاختلق بعضهم أشكالا جديدة للتعبير تصطدم مع الإطار التقليدي للحبكة وخطية السرد، مدعمة بتطويرات تقنية جادة.»(9)

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/584

وقد مسّ هذا التجديد والتغيير مضمون الرواية وشكلها على السواء، فمن حيث مضمونها، أصبح الروائيون العرب يطرقون مواضيع جديدة مغايرة للمواضيع التقليدية، فحاولوا اختراق أسوار الجنس، الدين، السياسة، الحب، الموت، الأرض، المصير، الذات، الآخر، أزمة المثقف، الاغتراب، والتصوف...فكل هذه التيمات كانت محظورة من قبل أولئك المحافظين من الروائيين، ولكن مع موجة التحوّل والتحرر أصبحت محلاّ للسؤال، وفضاء للتجريب والمغامرة. وفي هذا المقام تصادفنا روايات جعلت من أحدى تلك التيمات مواضيع لها، من ذلك مثلا: ثلاثية أحلام مستغانمي "ذاكرة الجسد- فوضى الحواس- عابر سرير"، السيرة الروائية لمحمد شكري "الخبز الحافي- الشطار"، "السفينة" لجبرا إبراهيم جبرا، " بيروت 75 " لغادة السمّان، "الخباء" لميرال الطحاوي.. الخ.

أما من حيث الشكل، فقد سعى الروائيون العرب إلى تجاوز الأشكال التقليدية قدر الإمكان، ومحاولة إيجاد شكل يتماشى ومعطيات العصر؛ شكل من شأنه التعبير عن مكنونات المبدع ومضامينه من جهة، ويلبي حاجات المتلقي الذي صار له دور كبير في عملية الإبداع ويُحسَب له ألف حساب من جهة أخرى.

2_ ابراهيم الكوني ومشروعه السردي:

يعدّ إبراهيم الكوني من ألمع الروائيين العرب المعاصرين الذين حفروا أسماءهم في ذاكرة المتلقي ووجدانه. هو واحد من أهم الروائيين العرب الذين استطاعوا أن يواصلوا المضي في مشروعهم السردي بوتيرة متصاعدة حققت له مقروئية متزايدة عبر الزمن. فحينما يذكر اسم الكوني تُستحضر الصحراء التي انطلق منها ويُستحضر أهلها الذين شكّلوا شخصيات رواياته المتعاقبة.

ولعلّه من المفارقات المؤسفة أن يُعرف الكوني في الغرب ويُكرّم قبل أن يعرف في الوطن العربي. فقد ترجمت جلّ أعماله إلى جميع لغات العالم لا لشيء سوى لأنه استطاع الانطلاق من صحرائه واوه الصغرى ليصل إلى العالمية واوه الكبرى، بفضل ما عمل عليه في مشروعه السردي من تجريب واختراق للمألوف والسائد.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/584

بشكل من الاحترافية ودون الوقوع في النمطية، يفاجئنا إبراهيم الكوني في كل أعماله القصصية والروائية بعالم عجيب يأسرنا من الوهلة الأولى بغرابته وفرادته وجدّته؛ عالم مفعم بالأساطير المتناقلة عبر الأجداد والشيوخ والعرّافين، وبشخصيات أقلّ ما يقال عنها إنها "شخصيات موجودة على حافة الحياة دائما، وكأنها في صراع أبدي مع الموت، لا وقت لديها للتفكير إلاّ بما يحفظ استمرار حياتها، ويحصّنها من مواجهة الفناء. كلّ شيء في المجتمع الصحراوي آكل أو مأكول، وكلّ شخص فيه قاتل أو قتيل، حياة أو موت، وحين يكون الخيار الوحيد أمام الشخصية هو الوجود في رؤية مكانية منبسطة مشغولة بمقاومة الموت، فإنّ الزمن نفسه تتراجع أهميته، بوصفه تتابعا خطيا إلى حدّ الاختفاء. ولهذا السبب فإنّ المجتمعات الصحراوية مجتمعات بلا زمن، تعيد إنتاج نفسها باستمرار، بطريقة واحدة وكأنها موجودة في الأبد. هكذا يملي المكان نوعا محددا من الزمان الدائري ويفرضه في هذه البيئة."[10]

هي شخصيات سعيدة بقدرها، راضية بشقائها المحتوم عليها، شقاء الحرّ والظمأ والوحدة والقبلي، فيها الخيّر والشرير، وفيها النبيل والوضيع، وفيها الحكيم والسفيه. ولكنها كلها لا تطلب من الدنيا إلاّ لقمة الطعام وشربة الماء التي تبقيها على قيد الحياة في فضاء لا يعرف المدى ولا الحدود، هو فضاء الصحراء الفسيح.

يصور لنا الكوني الصحراء ومجتمع الطوارق في جو سردي تخيلي مليء بالأساطير. و«هي أساطير تومض ثم تنطفئ، لكنها تنبض بالحيوية والتألق، ومحورها العلاقة الملتبسة بين الإنسان والإنسان أو بين الإنسان المتوحد والحيوان، ولو رتبت هذه الأساطير على وفق أنساق محددة، لشكّلت بمجموعها ما يمكن الاصطلاح عليه بـ"ميثولوجيا الطوارق"»[11]

وإذا ما أخذنا رواية (المجوس)[12] مثلا كنموذج عن العالم السردي للكوني نلفيه عالما مفعما بالأساطير، إذ يمكن اعتبار الأسطورة بطلة هذا النص، لأنها كانت دائمة الحضور والفعالية من بداية السرد إلى نهايته. وعلى هذا الأساس، لا ندري إن كنا بصدد قراءة رواية أم أسطورة، لأنّ درجة التشابك والتعالق بينهما شديدة القوة. ولعل هذا الأمر بالذات هو ما أسس لأدب إبراهيم الكوني المتميّز. وفي كتابه (صحرائي الكبرى)، صرّح الكوني قائلا: «وجودنا لغز لا يكتمل وجوده إلاّ بوجود الثالوث: الرواية، الخلاء، الأسطورة. الرواية روح

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/584

اللغز، والخلاء جسده، والأسطورة لغته. الرواية فيه روح، والأسطورة له روح هذه الروح. في هذا الدور يكمن سرّ اللهفة إلى الأسطورة. هنا يكمن سرّ الظمأ إلى الأسطورة. السرد لا يبقى سردا، والرواية لا تصير رواية، إذا لم تتكلّم لغة الأسطورة. غاية الأمر في أساسه هو قول الأسطورة. غاية الرواية أساسا خلق الأسطورة، أو فلنقل إنّ نية الراوي الأولى هدم البدايات من أساسها، وبناء البديل خارج المكان بمساعدة الأسطورة. أي خلق الأسطورة بواسطة الأسطورة. قول أسطورة عن أسطورة. تكوين أسطورة عن أسطورة التكوين.»[13]

كلمة الكوني هنا واضحة وصريحة، هو لا يبغي من الرواية إلاّ خلق الأسطورة. والأسطورة لغة الصحراء ولغة أهلها. إنّ مشروع إبراهيم الكوني هو تأسيس مجتمع طارقي، وإعادة عزّه وسلطانه. فالمستقبل ليس في الشمال إنما هو في الجنوب، في الصحراء، لدى الطوارق، هذه الأقلية المقصاة من خريطة العالم السياسية، الاقتصادية وحتى الاجتماعية الثقافية. يريد الكوني أن يعيد بعث أسطورة الصحراء وأسطورة الطوارق. مهد آدم ومهد الحضارة.

الرواية لا تكون رواية عند الكوني إلاّ إذا صارت أسطورة بلغتها وسردها وشخصياتها وأفكارها. في أدب الكوني «تطمح الرواية في البداية في أن تؤطر الأسطورة بمكان مناسب تتعيّن به وتزداد ملموسية، وتريد الأسطورة، في المقابل، أن تضفي على الرواية زمانا دوريا تتحرّر به من حجريتها ومكانيتها وتزداد انطلاقا. وليس من شك في أن هذه المزاوجة تعني في آخر الأمر نوعا أدبيا جديدا، ليس بالرواية الخالصة، ولا الأسطورة الخالصة، نوعا يمكن أن نطلق عليه بحق: ملحمة الزمان الدوري.»[14]

3_ إبراهيم الكوني من المحلية إلى العالمية:

لقد أدرك إبراهيم الكوني منذ بداياته الأولى في مشروعه السردي الضخم أنّ الوصول إلى العالمية لا يكون إلاّ بالانطلاق من المحلية. ولهذا عمل على ترسيخ عالمه الروائي من خلال التركيز على تيمته الرئيسية "الصحراء " بأهلها وأساطيرها وطقوسها وحيواناتها..

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/584

وغير خاف على أي باحث في الرواية أنّ نشدان العالمية لا يكون إلاّ من خلال ممارسة التجريب على النص، ومحاولة تكسير المألوف وتجاوز السائد وخرق العادة دون التفريط في الجوهر لدى الكاتب. ولعل هذا ما حاول الكوني العمل عليه.

إنّ الكتابة الجديدة التي تمتهن مشروع التجريب وتتبناه، كتابة إشكالية تشكيكية تقوم على السؤال، وتحطيم السائد والمألوف. كتابة تحاول البحث دوما عن أفق أو آفاق جديدة لها علاقة بالموروث، كما لها علاقة بالمكتسب، فهي لا تنفي أي واحد منهما. هي كتابة تؤكد أنّ التجريب في الرواية حق مشروع، ومن شأنه أن يعلي من مقامها، ويثبت قدرتها اللامتناهية على الخرق والتجاوز. فكل تجربة روائية جديدة هي انطلاق نحو أفق آخر حيث يخيل للمبدع أنه التقاء السماء بالأرض، وإذ به يدرك مرة تلوى المرة أن هذا الالتقاء لم يتم بعد، وما عليه سوى خوض رحلة التجريب للمرة الثانية، رحلة تمتزج فيها نشوة الاكتشاف وسحره بعذاب الكتابة وأرقها.

إنّ ما يميّز أدب إبراهيم الكوني هو اشتغاله عل نصوصه من خلال التجريب الروائي الذي شمل عنده عدة مستويات نحدّد بعض ملامحها فيما يأتي:

أ- تحطيم خطية السرد: حيث عمد الكوني إلى تكسير استقامة الزمن الروائي بحيث لم يعد ملزما بأن يسرد الحكاية من أولها لآخرها متتبعا التسلسل الزمني للأحداث، بل صار يخلط الأحداث دون مراعاة استقامة زمانها التاريخي/الواقعي، ليجد القارئ نفسه في متاهة سردية لا أول لها ولا نهاية وكأنه في لعبة، وينبغي عليه أن يقوم بترتيب الأحداث في ذهنه ليتمكن من فهم الرواية. وهذه سمة من سمات المجددين في الرواية الذين سعوا منذ البداية إلى إشراك القارئ في بناء الرواية ووضع نسيجها من خلال « تقطيع الخيوط السردية المألوفة، وطرح عدد من الوحدات والمشاهد والبنى البدئية التي يعجز كل منها عن تشكيل مادة حكائية بمفرده، ويعجز اصطفافها التجاوزي أيضا عن تشكيل حكاية، بسبب استقلال كل منها، وتنحّيه إلى جهة مختلفة أيضا. ولكن الحكاية تتشكّل بواسطة تدخّل القارئ لإيجاد الروابط الخفية بين هذه المشاهد واللوحات والوحدات البدئية، وإكمال ما سمّاه إيكو مساحات فارغة في النص.»[15]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/584

ب- المزج بين الرواية والأسطورة: لقد عمد الكوني منذ البدء إلى توظيف الأسطورة في خطابه الروائي كنوع من مشروعه الخاص بأسطرة الرواية بطريقة عجيبة. وإنّ استلهامه للأسطورة لا يعني أبدا أنه يريد إعادة إنتاجها كما هي، أو حكايتها من جديد والتذكير بها، بل إنه يقوم بتفجيرها وإعادة بنائها من جديد برؤى ودلالات تعبّر عن موقفه من الحاضر والراهن. إنه يحاول دائما أسطرة الرواية وعصرنة الأسطورة. ولهذا، فإنّ النص الكوني من أكثر النصوص تعقيدا وتعددا في مستويات التأويل، حيث لا يمكن الفصل أو التفريق بين ما هو روائي وما هو أسطوري، لأن الكل متداخل متجانس إلى حدّ يصعب معه معرفة حدود الرواية وحدود الأسطورة.

ج- استلهام التراث الشعبي المحلي: لقد تميّزت روايات إبراهيم الكوني بتوظيفها للتراث الطارقي الشفوي ومساءلتها إياه واتّخاذها له منطلقا لتشييد نصيتها. ولما كانت قراءة التراث ليست سهلة، فإن العمل عليه كذلك ليس بالأمر الهيّن، فقد كان الأمر يستدعي من الكوني أن يكون ذا ثقافة واسعة، واطّلاع أوسع على منجزات الماضي، وحيثيات الحاضر ليستطيع التوفيق بينهما، فلا يعيد اجترار التراث كما هو، ولا كتابة الحاضر كما هو، بل يحاول أن يقرأ هذا التراث بنظرة حداثية تضمن أصالته من ناحية، وتجديده من ناحية أخرى. وهو في عمله هذا يفيد نصه الروائي إذ يضمن له معينا لا ينضب من المضامين والأشكال التي يمكن توظيفها بما يتماشى وموضوعته المركزية.

د- الاشتغال على المكان: المكان عند الكوني لم يعد مجرد مكان جغرافي تقع فيه الأحداث، وتتحرك ضمن حدوده الشخصيات، بل صار فضاء له وجوده الإستراتيجي في الرواية. والمكان عند الكوني هو الصحراء بكل ما تظهره وتضمره من تفاصيل. فقد تحوّلت من مجرد مكان له حضور شعاري إلى فضاء لا محدود له فنياته وخصوصياته الجمالية، بل وحتى فاعليته في بنية الرواية وهندسيتها.

هـ- الاشتغال على اللغة: تلعب اللغة دورا مهما في الرواية، فهي لسان حالها وحال شخصياتها، تعبّر عن مكنوناتهم وخباياهم، وأفكارهم واتجاهاتهم.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/584

ولما كانت الرواية فنا لغويا نثريا، كان البحث عن أفق جديد لها يشغل بال الكوني وغيره من الروائيين المجددين الذين سعوا دائما إلى التجاوز والانزياح عن المألوف والسائد، فكان من مظاهر هذا التجاوز أن زاوجوا بين الشعري والنثري، وهو ما نلفيه في نصوص الكوني الذي حاول أن يضمن للرواية روائيتها من جهة، ويضمن للغة شعريتها من جهة ثانية. فلغة الكوني لغة صوفية رمزية موحية شعرية مكثفة. ببساطة هي لغة أسطورية جعلته ينفرد بها وكأنها سمة من سماته الشخصية.

وختاما نقول إنّ شرارة الجنون، والألق الحار في التعبير، وعمق التحليل الداخلي، واللوثة الصوفية، والتعاطف مع الإنسان المعطوب والمخلخل، هو ما يميّز أدب إبراهيم الكوني الذي استطاع أن يحوّل بحق الرواية إلى أسطورة، ويحوّل الأسطورة إلى رواية نعيد كتابتها كلما حاولنا تفكيك ما يتناسل فيها من إحالات نصية ورموز. إنّ نص الكوني هذا نص تجريب بامتياز يؤهله لأن يكون روائيا عالميا.

الهوامش:

1-عبد الله إبراهيم: **موسوعة السرد العربي**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005م، ص 410.

2-ينظر، نبيل سليمان: **حوارية الواقع والخطاب الروائي**، دار الحوار، سوريا، ط2، 1999م، ص 117.

3-صلاح صالح: **سرد الآخر- الأنا والآخر عبر اللغة السردية-**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2003م، ص 22-23.

4-عبد الله إبراهيم: **موسوعة السرد العربي**، ص 400-401.

5-ينظر، المرجع نفسه، ص 402.

6-نفسه، ص397.

7-محمد أمنصور: **استراتيجيات التجريب في الرواية المغربية المعاصرة**، شركة النشر والتوزيع- المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2006م، ص 78.

8-عز الدين المدني: **الأدب التجريبي**، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1972م، ص 130.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/584

9-أحمد خريس: **العوالم الميتا قصية في الرواية العربية**، دار الفارابي، بيروت، دار أزمنة، عمان، ط1، 2001م، ص 65-66.

10-سعيد الغانمي: **ملحمة الحدود القصوى- المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني-**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000م، ص 14.

11-عبد الله إبراهيم: **موسوعة السرد العربي**، ص 568.

12- إبراهيم الكوني: **المجوس**، دار التنوير، بيروت، ط2، 1992م، جزأين.

13-إبراهيم الكوني: **صحرائي الكبرى**، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، 1998م، ص 122.

14-سعيد الغانمي: **ملحمة الحدود القصوى -المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني-**، ص165.

15-صلاح صالح: **سرد الآخر- الأنا والآخر عبر اللغة السردية-**، ص 41.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/584